حرب المدنية الاوربية

والمقارنة بينها و بين المدنية الاسلامية ، والفتوحات العربية

لقد أرتنا هذه الحرب من ضروب العبر ، ما لم يكن يخطر قبلها على قلب بشر ، وهتكت لنا من أستار الرياء ، ما أرانا كثيرا من حقائق الاشياء ، التي لم يكن يلمحها الا أفراد الحكماء ، فظهر للذكي والبليد ، والغويّ والرشيد ، ان هذه المدنية المادية ، مدنية قوة وحشية ، وشهوات بهيمية ، كانت تخدع الابصار وتفتن البصائر بما يدعيه أهلها في زمن السلم من حب الحق والتحلي بلباس الفضائل ، واقامة ميزان العدل ، وثل عروش أئمة الجور والظلم ، حبا في سعادة الناس ، ورغبة في المساواة بين الافراد والاجناس

وقد كان من مقدمات هذه الحرب بين الدول الكبرى حربان في البلقان ، اقترف فيهما البلقانيون من ضروب القسوة وفظائع العدوان ، وتقتيل الشيوخ والولدان ، وهتك الاعراض ونهب الاموال ، مالم يعرف التاريخ أقبح منه منظرا ، ولا أسوأ عاقبة وأثرا ، ولم يكن يخطر في بال أحد أن هذه الموبقات يمكن ان يقع مثلها من دولة من الدول الكبرى ، دول العلم والفنون والمدنية الرائعة في هذا العصر الذي يفضلونه على جميع العصور ، ويسمونه عصر الحضارة والنور ، نعم ان أنواره المادية يكاد شعاعها يذهب بالابصار ، ويمكن ان يفضل بها الليل على النهار ، ولكن يتمثل لك في هذا الضوء عالم المدنية ، هيكلا من هياكل الوثنية ، قد نصب في محرابه تمثال القوة الحربية ، واضعا إحدى قدميه على الحق والاخرى على الفضيلة ، رافعا بيمنى يديه راية القهر والسلطة ، وبشمالها راية الشهوة واللذة ، والناس ما بين راكع له وساجد ، ومحرق للبخور ومقدم للذبائح

قلما كان أحد من الناس يظن ان دول العلم والحضارة تقترف مثل ذلك الظلم والعدوان ، وتجترح تلك السيئات التي اجترحتها شعوب البلقان ، فجاءت هذه الحرب مكذبة لظن الخير فيها ، وأحقت من القضاء بالقسوة والفظاعة عليها شر ما أحقت على من قبلها ، اذ كانت أقدر على التنكيل والتدمير من البلقانيين الذين

م عالة عليها ، بقدر ما آتاها العلم من أسبابها وآلاتها ، فقد جعلت العلم الجدير بأن يكون مصدر العدل والرحمة والسعادة ، مصدرا للظلم والقسوة والشقاوة ، فهذه دولة ألمانية الممتازة بسعة العلوم واتقان الفنون ، قد امتازت بما اخترعته من آلات التخريب وأسباب المنون ، وينقل لنا عنها محاربوها ما تقشعرّ منه الجلود ، ويتصدع من هوله الحجر الجلمود ، من مدافع تدرك الحصون والمعاقل ، وغواصات تنسف البوارج والبواخر ، وغازات سامة يتكون منها دخان أخضر ، يقتفي آثاره الموت الأحمر ، فهو مصداق قول الله تعالى (فارتقبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين * يَغشى الناس هذا عذابٌ أليم)

وضعوا للحرب قوانين لتخفيف نكباتها ومصائبها مستمدة محاسنها من الشريعة الاسلامية شريعة العدل والرحمة ، ولكن ثبت انهم مارعوها حق رعايتها ، وانما يعملون بها في بعض الامور الظاهرة المشتركة بين كل من المتقاتلين كمعاملة الاسرى ، ومن أمن منهم ان يعاقب بمثل عاقب به لعجز خصمه أو لا مكانه إخفاء جنايته ، لم يلتزم أحكام قوانين الحرب وحقوق الدول ولا معاهداتها احتراما لها ، أو حبا في الحق والعدل اللذين توضع القوانين والعهود لاجلهما .

فأين حرب هذه الامم والدول التي خدع الناس كلهم حتى المسلمون بها ، وصاروا يباهون بفضائلها ، وارتقائها في معارج المدنية الانسانية بعلومها وفنونها ، — من حرب الصحابة الذين كان أكثرهم أميين ؟ تلك الحرب التي لم يعرف التاريخ البشري مثلها في رعاية الحق والعدل والورع ، واستعمال الرأفة والرحمة في السرّ والعلن ، بل شهد فيلسوف التاريخ والاجتماع (غوستاف لوبون) للعرب كلهم بذلك فقال : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب . فبذلك العصر النوراني فليفاخر المفاخرون ، لا بعصر الوحشية المنظمة التي جاء بها القرن العشرون

هل نقل ناقل أو قال قائل ان أحدا من الصحابة عليهم الرضوان أو ممن حارب معهم من التابعين انتهك عرضا ، أو قتل شيخا أو امرأة أو غلاما ، أو سلب لأحد من أعدائه مالا ، أو هدم كنيسة أو ديرا ، أو قتل راهبا أو قسيسا ؟ أو مثل بقتيل ،

أو أجهز على جريح ؟ كيف وقد كان الرسول (ص) يوصيهم بمثل قوله « انطلقوا باسم الله و بالله (ص) ولا تقتلوا شيخا فانيا[1] ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا وضموا غنائمكم ، (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) » رواه أبو داود من حديث انس بن مالك — وروى احمد من حديث ابن عباس قال كان رسول الله (ص) اذا بعث جيوشه قال « اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا [2] ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »

ومن وصايا الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رض) المقتبسة من مشكاة النبوة مارواه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد ان ابا بكر بعث جيوشا الى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان — وكان يزيد أمير ربع من تلك الارباع — فقال اني موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ، ولا تقطع شجرا مثمرا ، ولا تخرب عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكله ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقه ، ولا تغلل ولا تجبن [3]

نعم قد كان يقع قليل من الشذوذ يقابل بالانكار ، الا اذا دفع اليه الاضطرار ، والنادر لا حكم له . روى الشيخان وأصحاب السنن ما عدا النسائي وغيرهم عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي (ص) فنهى رسول الله (ص) عن قتل النساء والصبيان .

وروى احمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن رياح بن ربيع انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رياح وأصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون اليها

---

(١) المراد بالشيخ الفاني من لا يقاتل وقد كان الناس كلهم مقاتلة الا هؤلاء الذين نهى الحديث عنهم والقاعدة الاسلامية العامة انه لا يقاتل الا من يقاتل

(٢) الغلول الخيانة والغنائم . والتمثيل تشويه الأعضاء بنحو قلع العين وجدع الانف وصلم الاذن . وقد حرم الاسلام بالتمثيل بالقتلى فضلا عن الاحياء ، وقد ثبت وقوع التمثيل في حرب المدنية الاوربية وفي الحرب البلقانية قبلها

(٣) أخبن الرجل خبأ في خبنة ثوبه أو سراويله شيئا . والخبنة بالضم طية الثوب وثنيته . وفي نسخ الموطإ المطبوعة وأكثر الكتب التي نقلت عنه : ولا تجبن بالجيم

حتى لحقهم رسول الله (ص) على راحلته فأفرجوا عنها ، فوقف عليها رسول الله (ص) وقال « ما كانت هذه لتقاتل — وقال لأحدهم — الحق خالدا فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا » (١) وروى أبو داود في مراسيله عن عكرمة ان النبي (ص) مر بامرأة مقتولة يوم حنين فقال « من قتل هذه » ؟ فأخبره رجل انه كان غنمها فلما رأت الهزيمة أهوت الى قائم سيفه لتقتله به فقتلها قبل ان تقتله . ولا أتذكر قتل امرأة في مغازي النبي (ص) غير هاتين الا تلك المرأة اليهودية التي أمرها زوجها ان تلقي الرحى على بعض المسلمين في غزوة بني النضير ليقتلوها فلا تعيش بعده اذ كان موطنا نفسه على ان يقاتل حتى يقتل ففعلت

وقد كان رفق النبي (ص) بالنساء أعظم من ذلك فقد روى ابن اسحق ان بلالا مرّ بصفية وابنة عم لها على قتلى يهود بعد سقوط حصن بني أبي الحقيق فلما رأت المرأة القتلى صكت وجهها وصاحت وحثت التراب على وجهها فقال النبي (ص) لبلال « أنزعت الرحمةُ من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » ؟

ومن ضروب العبرة في حرب المدنية الاوربية كثرة مايتقاضونه من البلاد التي يفتحونها من الغرامات ، وما يفرضونه عليها من الأتاوات ، وقد كان المسلمون الاولون يكلفون أهل البلاد ضيافة ثلاثة أيام ، لضرورة الحاجة الى القوت وعدم تيسر أسبابه بالطرق النظامية المتبعة في هذه الايام ، وأما الجزية والخراج اللذان يفرضونهما على أهل البلاد فهما أقل مما تفرضه كل حكومة من حكومات الارض على أبناء جنسها في بلادها ، دع ماتفرضه الحكومات الاوربية في مستعمراتها ، فهو يستغرق معظم غلات أرضها ، فلا يبقى لأكثر أهلها منها الا مايسد الرمق ، ويستعين به على مداومة العمل ، وقد قرأنا في الصحف مافرضه الألمان على أهل بلجيكة من الغرامات وما حملوهم من الاثقال ، بعد ما حل بهم ماحل من الخزي والنكال ، فاذا هو مما تعجز عن حملة الجبال لا الجمال ، ولا غرو فان كل حظ أهل هذه المدنية المادية

(١) العسيف الاجير

من الحياة والدافع لها الى القتال ، انما هو الاستكثار من جمع الاموال ، والتمتع باللذة والعظمة والسلطة والجاه ، ولو ظفر البلجيكيون بالالمان، لأنزلوا بهم الخزي والهوان ، وعاملوهم كما عاملوا أهل الكونغو منذ أعوام ، فأين هذا من عفة المسلمين ولا سيما الصحابة الكرام .

روى البلاذري في فتوح البلدان عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغني انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع و بلغ المسلمين اقبالهم عليهم لوقعة اليرمك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم . فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فأغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا مابقي للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة (يعني الروم أي الرومانيين) وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين وأدوا الخراج . اه

وفي رواية احفظها ولاأتذكر موضعها الآن أن الصحابة لما ردوا ما كانوا أخذوا من الجزية قالوا انا كنا أخذناها جزاء حمايتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا الآن عن ذلك ، فخلف الاهالي ان أبناء دينهم ما كانوا ليرجعوا مالا أخذوه الخ

فهل عهد من فاتح فى الاولين والآخرين ان يرد الخراج الى أهل البلاد التي يفتحها ، بناء على ان الخراج لا يباح أخذه الا لأجل حفظ البلاد والدفع عنها ، وان العجز عن ذلك وان كان في سبيل الدفاع عن تلك البلاد يوجب رد الاموال الى أصحابها ؟ لا لا ، ان هذا العدل والورع لم يعرفه البشر الا من الصحابة رضي الله عنهم ، فان كان من وليهم من خلفاء العرب وامرائهم دونهم ، فهم يفضلون سائر الامم في رقتهم وقناعتهم

كان بنو أمية أحرص العرب على نعيم الملك وسعة العيش ، فخرجوا في كثير من أمر السلطة والتصرف في بيت المال عن السنة المتبعة وسيرة الخلفاء الراشدين

وانما استقام عليها منهم عمر بن عبد العزيز . أما سيرتهم في الغزو والقضاء بين الناس وادارة البلاد فكانوا يتحرون فيها العدل والرحمة ، وكذلك كانت سيرة العباسيين في الشرق، والامويين في الغرب (أي الاندلس) ومن شذ عن ذلك لغير سبب حفظ الملك كان مذموما وعرضة للعقاب ، وقد تضاعفت ثروة الممالك واستبحر عمرانها بعد أن انتزعوها من الروم والفرس . بما كانوا يسوسونها به من الرحمة والعدل ، ولم يفطن لهذا بعض الكتاب الذي انبرى في هذه الايام الى ذم ولاة العرب بكونهم لم يكن لهم همّ إلا جباية الخراج، وقوله في أفراد منهم انهم لم يفعلوا شيئا للبلاد ، أو لم يقل فلان المؤرخ انهم فعلوا شيئا — وهو يعلم علما ضروريا ان عدم القول لا يستلزم عدم الفعل، وان ماسكت عنه زيد يجوز ان لا يسكت عنه عمرو ، ويعلم علما نقليا أن مزية الفاتحين الاولين من العرب هي العدل والرحمة لا الصناعة التي امتاز بها مؤسسو الاهرام وأمثالهم ، وكانت ولا تزال شاهدة على استبدادهم وظلمهم

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه قلة دخل بيت المال بمصر بكثرة دخول الناس في الاسلام ، ويستأذنه في ضرب جزية على المسلمين . فكتب اليه عمر هذه الكلمة العالية « ان محمدا (ص) بُعث هاديا ، ولم يبعث جابيا »

وكتب اليه عدي بن أرطاة : أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين فان قبلي أناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيما لست أرجو استخراجه (وفي رواية : لست أقدر على استخراجه) من أيديهم الا أن أمسهم بشيء من العذاب. فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لي في ذلك فعل » فأجابه بقوله :

«أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بَشر، كأني لك جُنّة من عذاب الله . وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله . وأيم الله لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم ، أحب الي من ألقى الله بدمائهم . والسلام »

وروي عن يحيى الغساني أنه قال : لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقا ونقبا ، فكتبت الى عمر أعلمه حال البلد وأسأله :

آخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة ، أم آخذهم بالبينة ، وما جرت عليه السنة ؟ فكتب الي أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . قال يحيى ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا وتقبا .

ومن ضروب العبرة في هذه الحرب ماتراه في كلام كثير من الكتاب من بنائها على قاعدة من قواعد المدنية الحديثة قررها الالمان وتوسعوا في فلسفتها وألفوا فيها الكتب، ووافقهم عليها من وافقهم بالقول والفعل أو بالفعل دون القول — وهي قاعدة « الحق للقوة » — وقد نشرنا في الجزء الذي قبل هذا مقالا في شأن الكتاب الذي ألفه أحد قواد الالمان وعلمائهم (الجنرال فون برنهاردي) في ذلك وسماه (المنطق والمبادئ في الحروب) وفي نقد مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية له، ومنه تعلم أنهم جعلوا الأثرة وتفضيل الاقوياء على الضعفاء حتى في الحقوق المدنية مما تقتضيه الفضيلة والحكمة بل زعموا أنه من أصول الديانة المسيحية وأحكامها، وان مساواة الشعب الغالب للشعب المغلوب لايجوز في نظر العلم والفلسفة ولا في حكم الدين

ندع لعلماء اللاهوت ورجال الكنيسة حكمهم فيما عزاه الجنرال الالماني وغيره الى الديانة المسيحية مع اعتقادنا ان من آداب دين المسيح عليه السلام المبالغة في الايثار (الذي يعبر عنه القوم بانكار الذات) وهو ضد الاثرة التي يدعيها هذا الفيلسوف الالماني وغيره، فهو ينافي طلب السلطة وانتزاع ملك الناس وملكهم بالقوة ، لاجل التمتع بالجاه واللذة ، لان من قواعد الانجيل ان يعطي المؤمن ماله لغيره ، فكيف يتفق هذا مع انتزاعه من غيره مايملكه ؟ وأما الاسلام فهو وسط بين هذه المدنية المادية ، وبين زهد المسيحية ، فهو دين سيادة وسلطة مدنية ، وفضيلة أدبية روحية . فالايثار فيه فضيلة مندوبة ، وهو في المسيحية فريضة مطلوبة ، قال الله تعالى في وصف المؤمنين (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأما قاعدة الاسلام في الاحكام فهي العدل والمساواة في الحقوق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والقريب والبعيد ، والحبيب والبغيض ، قال تعالى (٥ : ٨ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) والآيات في هذا

المعنى كثيرة أوردنا طائفة منها في الرد على الكاتب الامريكي الذي زعم — فيما كتبه بمناسبة إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية — ان الشريعة الاسلامية جاءت بعدم المساواة بين المسلم وغيره ، وبينا هنالك انه لا تعرف شريعة في الارض قررت هذه المساواة غير الشريعة الاسلامية . وقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون على وجه الكمال ، وكان هو الاصل والقاعدة عند الامويين والعباسيين في القضاء . وانما وقع الشذوذ والخروج عنه في بعض الاحكام السياسية والعسكرية

واقعة مساواة عمر بن الخطاب بين علي صهر الرسول وابن عمه و بين رجل من عامة اليهود ، وغلط عمر في تسمية اليهودي وتكنية علي ، واستياء علي منه لتفضيله اياه على خصمه بالتكنية ، واعترافه هو بأن ذلك خطأ — واقعة مشهورة معروفة . وقد جرى لعمر بن عبد العزيز ما يقرب منها :

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم اهل دير اسحق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي . ولكن وكل بخصومتك من شئت والا فجاثي [1] القوم بين يدي . فوكل مولى له بخصومته فقضى عمر عليه بالناعورة . ذكره الحافظ ابن ابن الجوزي في سيرته

قلت أن هذه الواقعة تشبه واقعة علي مع اليهود . وأعني بالتشبيه المساواة في التكريم والاحترام بين الرفيع وان كان بيت النبوة أو الملك و بين سائر الناس حتى من غير المسلمين ، فعلي كان سيد آل بيت الرسول وعمادهم ، ومسلمة كان من بيت الملك فهو ابن عبد الملك بن مروان ، وناهيك بما كان لبني عبد الملك من العز والسلطان .

أما المساواة في الحقوق نفسها فكانت هي الاصل الذي يجري عليه كل الحكام الا من شذ لاسباب عارضة أو لفساد في خلق الشخص و وقائعها في عهد عمر بن عبد العزيز لا تحصى . وقد كان أول مظلمة رفعت اليه يوم توليته مظلمة

---

(١) اي اجلس بازائهم جاثيا على ركبتك مثلهم افلا تميز في الخصومة بين ابناء الخلفاء والامراء و بين دهماء الناس كاهل الدير وغيرهم

ذمي من أهل حمص ادعى ان العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبه أرضه ، قال عمر : ياعباس ماتقول ؟ قال أقطعنيها — أي الارض — أمير المؤمنين الوليد بن الملك وكتب لي بها سجلا . فقال : ماتقول ياذمي ؟ قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق ان يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه ياعباس ضيعته . فردها عليه

وقد كان أهل بيت الملك من بني أمية تأثلوا ضياعا ومزارع كثيرة من بيت المال، وكان لبعض الناس في بعضها حق أو مقال ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ردها، وكان أول مابدأ به رد ماكان له ولولده من ذلك

وروى انه استشار مولاه مزاحما في ذلك فقال : يامزاحم ان هؤلاء القوم اعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطونا اياها وما كان لنا ان نقبلها ، وان ذلك قد صار الي ليس عليّ فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم ياأمير المؤمنين هل تدري كم ولدك؟ انهم كذا وكذا . قال فذرفت عيناه فجعل يستدمع ويقول . أكلهم الى الله تعالى . ثم ذهب مزاحم وذكر ذلك لعبد الملك بن عمر عسى ان يكف أباه عن ذلك . فقال له عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يامزاحم . ثم وثب فانطلق الى بيت أبيه عمر فاستأذن عليه فقال له الآذن : ان أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال استأذن لي . قال : أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار الا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذن لي لا أم لك . فسمع عمر الكلام فقال : من هذا ؟ قال هذا عبد الملك . قال ائذن له . فدخل عليه وقد اضطجع للقائلة فقال : ماحاجتك يابني في هذه الساعة . قال : حديث حدثنيه مزاحم . قال فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال وقع رأيي على انفاذه . قال فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني . نعم يابني ، أصلي الظهر ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين ! ومن لك ان بقيت الى الظهر ان تسلم لك نيتك الى الظهر! فقال قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة . فيجتمع الناس (قال اسماعيل بن أبي حكيم الراوي لهذه الواقعة وهو من رجال صحيح مسلم) فنادى المنادي : الصلاة

جامعة. فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطوناها ، وما كان لنا ان نقبلها ، وان ذلك قد صار اليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب . ألا واني قد رددتها و بدأت بنفسي واهل بيتي . اقرأ يامزاحم .

قال الراوي : وقد جيء بسفط قبل ذلك ـ او قال جونة ـ فيها تلك الكتب. فقرأ مزاحم كتابا منها فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر و بيده جلم (أي مقص) فجعل يقصه بالجلم، واستأنف مزاحم كتابا آخر فجعل يقرؤه فلما فرغ منه دفعه الى عمر فقصه ، ثم استأنف كتابا آخر ، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر

هذه هي أحكام الاسلام فمن خالفها كان خارجا عن هديه، استعملوا القوة، في اقامة العدل مع الرحمة ، وبذلك ساد من ساد من خلفائهم ودولهم ، فقاعدتهم « القوة للحق » وقاعدة المدنية الحديثة « الحق للقوة » واما المتأخرون منا فهم مذبذبون بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وما رأيت أصدق في وصف القوم ووصفهم من قول شاعر بني العنبر أول شعراء الحماسة :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح إبلي بنو اللَّقيطةِ من ذُهل بن شيبانا
اذًا لقام بنصري معشر خُشُنٌ عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قومٌ اذ الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زَرَقاتٍ ووُحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندُبُهم في النائبات على ماقال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما اذا ركبوا شنو الإغارة فرسانا وركبانا

ومن ضروب العبرة في هذه الحرب مانراه في أخبارها من الكذب والتناقض والتعارض والتهاتر والتمويه والتدليس وسوء التحريف وفساد التأويل ، يشترك في

ذلك أصحاب الشركات البرقيـة . والجرائد السياسية ، حتى سرى الى المجلات التاريخية والعلمية ، بل لم يعد أحد من الناس يثق كل الثقة بالتقارير والبلاغات الرسمية ، لانهم يرون كل خصم يكذب خصمه في أخباره الرسـمية . ولو سئل أصحاب الجرائد في كل قطر من الاقطار عن سبب ما ينكر عليهم مما ذكر — لاجابوا : ان سببه الاول تضييق حكوماتنا علينا ، وإلزامها إيانا عرض كل ما نكتبه على رقبائها الذين سلبوا حرية الكتابة منا ، مع اجتهادنا في جعل ما نكتبه موافقا لمصلحتها ، وتجنبنا من تلقاء أنفسنا كل ما نرى ان نشره مخالف سياستها .

هذا عذر عارض ، والمشهور بين الناس ان الجرائد لاتتحرى الصدق فيما تنشره لافي أيام السلم وعهد الحرية ، ولافي أيام الحرب وعهد المراقبة ، وانها تتعمد الكذب والتمويه اذا كان لها في ذلك منفعة . والحق انها تواريخ فيها الصادق والكاذب ؛ والحق والباطل ، تجمع بين الدرة والبعرة ، وتأتي بالذرة واذن الجرّة ؛ وانني لا أشهد لجريدة من الجرائد التي أعرفها في الشرق انها تمثل حال البلاد التي تصدر فيها والامة التي تتكلم عنها تمثيلا صحيحا كما يعرفه المختبر للبلاد وللامة . ولو كانت هذه الجرائد في عصر رجال الجرح والتعديل من المحدثين ، لجعلوا أصحابها في عداد الوضاعين ، ولم يرتقوا بهم الى درجة الضعفاء أو المدلسين . كيف وقد ضعف بعضهم القاضي الواقدي وبعضهم قال انه كذاب وانه كان يضع الحديث . وهو من اكبر الحفاظ واشهر المؤلفين ، كتب عنه سليمان الشاذكوني كتابا ثم أتاه فسأله عما كتبه عنه قبل ان يخرج به ، فاذا هو لم يغير حرفا منه

لم تُعنَ أمة من أمم العلم بمثل ماعني به المسلمون من ضبط الرواية في القرون الاولى . فان كانوا دونوا في تواريخهم كل ما قيل ماصح منه وما لم يصح لاجل الجمع والاحصاء ، فالعمدة عندهم على الاسانيد ، فما كان محل الشبهة منها أمكن تمحيص الرواية فيه بالبحث عن رجال سنده . فاذا انفرد بعض الرواة او المؤرخين بطعن في العلويين أو الامويين او العرب — مثلا — يمكننا بالنظر في السند أن نعرف هل فيه أحد المتعصبين غير الثقات من النواصب أو الروافض أو الشعوبية فنتهمه بوضعه أم لا؟ وتحرير هذه المسألة لايمكن الا بمقال طويل ، وعلى الله قصد السبيل .